عام الفيل. بين التعبير عن الذات والرغبة في التحرر

عبد العزيز بو خيزو

مفتش اللغة العربية ـ مركز الدراسات العربية ـ الرباط

تقديم عام حول الكتابة النسائية في المغرب:

لعلنا لا نجافي الحقيقة إذا قلنا بأن المرأة المغربية اقتحمت عالم الكتابة والإبداع في العصر الحديث، متأخرة عن صنوتها المشرقية. ويعزى ذلك، بلا ريب، إلى تأخر المغرب في معانقة التحديث والانخراط في غمار الحداثة قياسا إلى المشرق العربي.

وعلى العموم، إذا أردنا البحث في البدايات الأولى لفعل الكتابة عند المرأة المغربية سنلفي أمامنا النص السردي المنشور سنة 1938 للكاتبة مليكة الفاسي، والمعنون بـ «دار الفقيهة» والذي يحتوي على كثير من عناصر السيرة الذاتية. كما أنها نشرت مقالة اجتماعية بجريدة «العلم » سنة 1948 تحت عنوان: «مأساة من مآسينا الاجتماعية». وأهم ما سيطبع مرحلة ما قبل الاستقلال هو بحث المرأة المغربية المبدعة مليكة الفاسي وخديجة اللولا مثلا (عن شكل إبداعي محتمل لاحتضان إبداعية المرأة المغربية لذلك نجد التعبير عن الذات من خلال أشكال تعبيرية متعددة : المقالة، النص الشعري، القصة القصيرة ،الحكاية ..

تجربة ليلى أبوزيد وتاريخ الكتابة النسائية في المغرب:

لا يمكن فصل تجربة ليلى أبي زيد الإبداعية عن الجيل الذي تنتمي إليه. وتأسيسا على ذلك نستطيع أن نقر بانتماء ليلى إلى تجربة جماعية يمثلها جيل التأسيس الذي يضم أسماء وازنة مثل: خناثة بنونة وفاطمة الراوي وزينب فهمي (رفيقة الطبيعة) ومليكة العاصمي. وقد كان الطموح الذي يسكن وجدان ووعي هؤلاء المبدعات هو التأسيس الفعلي لنص إبداعيّ متكامل خصوصا في مجال السرد الروائي والقصصي. وهكذا نجد أن المدونة السردية لمرحلة ما بعد الاستقلال تضم العديد من الأعمال التي تعبّر عن الطموح السالف الذكر مثل:

- روايات خناثة بنونة: «ليسقط الصمت»، «النار والاختيار»، «الغد والغضب» التي تشج فيها بين الهم الوطني والهم القومي ؛

-النصوص القصصية لفاطمة الراوي: «رجل وامرأة» 1969، «تحت القنطرة» 1976التي تصوّر المعيش اليومي للفئات الاجتماعية الفقيرة ؛

- رواية «غدا تتبدّل الأرض» 1976 لفاطمة الراوي التي تُطرح فيها عبر صوت الساردة أسئلة لها علاقة بمرحلة ما بعد الاستعمار ومحاولة بناء موقف سياسي من التحولات التي عرفها المغرب إبان الاستقلال (انتقادها تعامل الأب مع المستعمر) ؛

- رواية عام الفيل سنة 1983 التي تتناول فيها الكاتبة الأوهام التي تمخّضت عنها مرحلة الاستقلال والتراجعات التي عرقلت تطور المجتمع المغربي في الاتجاه الصحيح.

رواية عام الفيل في مرآة التلقي النقدي:

في حوار أجراه موقع ثقافات في 13 شتنبر 2014 طرح المحاور عبد العزيز جدير السؤال التالي على الأديبة ليلى أبو زيد:

- «اعتبرت روايتك«عام الفيل» أكمل رواية مغربية تكتبها امرأة و قد احتفى بها النقد الأنجلو سكسوني أكثر من المغربي كيف تفسّرين ذلك؟»

من خلال الجواب الذي قدمته الأديبة يمكن الوقوف على الملاحظات التالية:

- احتفاء القراء بهذه الرواية عند صدورها سنة 1983، وكذا بعض الأدباء خاصة الشاعرين أحمد عبد السلام البقالي والشاعر العراقي صلاح نيازي. ومما يؤكد هذا الاحتفال أن «طبعتها الأولى نفذت في طرف وجيز وظلت تحت الطبع حتى بلغت الآن طبعتها السادسة».
- عدم احتفال النقد المغربي بهذا العمل – حين صدوره – تعزيه الكاتبة إلى هيمنة الخطاب الإيديولوجي على المشهد النقدي حينئذ.
- إن ترجمة «عام الفيل» إلى الانجليزية سنة 1989 ونشرها من طرف ناشرين في آن واحد (جامعة تكساس/الجامعة الأمريكية بالقاهرة) وتدريسها في الجامعتين وفي الشعب الانجليزية في الجامعة المغربية، كانتا نقطة تحول في التعاطي مع هذا العمل الإبداعي على المستوى النقدي. حيث كتبت عنها ، لأول مرة، «دراستان قيمتان» حسب الكاتبة نفسها ، للدكتورعبد العالي بوطيب من جامعة مكناس، والدكتورة بثينة شعبان من جامعة دمشق.

- في سياق جوابها تطرح الأديبة سؤالين جوهريين دالين:

- لماذا انتبه إليها – رواية "عام الفيل" – القراء في المغرب عند صدورها بالعربية ولم ينتبه إليها الأكاديميون؟ ولماذا انتبه إليها الأكاديميون الأجانب بمجرد صدور الترجمة الانجليزية ولم ينتبه إليها الأكاديميون المغاربة والعرب إلا بعد ما جاءت التزكية من الولايات المتحدة؟

- تؤكد الكاتبة في جوابها عن سؤال آخر يتعلق باحتواء هذه الرواية على عناصر «رواية ما بعد الكولونيالية» على أن رواية «عام الفيل» تدرس في إطار الأدب الإفريقي والعربي والمغاربي وعلى أنها طبّقت عليها العديد من النظريات مثل: نظرية «ما بعد الكولونيالية»، «ونظرية الكتابة النسائية» وأيضا ما يعرف بـ shematheory التي تمت ترجمتها الى العربية بـ «نظرية الخريطة الدلالية» (أن النص مكون من اللغة وأن اللغة دلالات معرفية وثقافية مرتبطة بعضها ببعض ويفسّر بعضها بعضا). وجاء تطبيق هذه النظرية في دراسة بعنوان:نظرية الخريطة الدلالية ولغة الخوف في عام الفيل.

عام الفيل من منظور النقد ما بعد الكولونيالي:

قراءة ما يكل هول نموذجا:
Leila Abouzeid'syear of the elephant :A post colonial Reading
.

ينطلق صاحب الدراسة من المقدمة التي كتبتها إليزابيت فيرما للترجمة الإنجليزية التي صدرت سنة 1989 تحت عنوان: «رحلة امرأة مغربية نحو الاستقلال والتحرّر»
A morroccanwoman'sjourneytowardindependance

ويؤكّد على أن ترجمة رواية «عام الفيل» إلى اللغة الإنجليزية كانت حدثا تاريخيا أدبيا وثقافيا لأن الأمر يتعلق بأول رواية نسائية لمبدعة مغربية تُترجم إلى اللغة الإنجليزية. كما أنه يرى بأن هذه الرواية تحتفل بأبرز التيمات التي يعُجّ بها الأدب ما بعد الكولونيالي، ومن أبرزها تيمتان:

- تيمة الاحتفاء والإشادة بالمقاومة من أجل التحرر والاستقلال الفردي والجماعي ؛
- تيمة إدانة سيطرة وهيمنة الثقافة الأجنبية على حياة المجتمعات المستعمرة في مرحلة ما بعد الاستقلال.

ختاما ،يبدو أننا لن نحيد عن سَمت الصواب إذا قلنا بأن هاتين التيمتين تشكلان ثنائية ضدّية تخترق عالم الرواية وتسري في أوصالها ومفاصلها، بل تشكّل رهانها الأساس: تحديد الموقف من المجتمع ومن الدين بعد الاستقلال.

- المستعمر = إدانة الغطرسة والهمجية (أحداث الدار البيضاء 1952)
- زهرة المجتمع = إدانة الأوهام التي تمخّضت عنها مرحلة الاستقلال (التنكّر للمبادئ:الزوج –صفية –الفقيه – رقية .....)
- الدين(التصوّف) = اعتباره مصدرا للتحرّر بعيدا عن احتذاء أي نموذج تغريبي(الشيخ)

عام الفيل: منطلقات نظرية واحترازات منهجية

«ماذا يحدث عندما أفتح كتابا:هل أقوم أنا بقراءته أم يقوم هو بقراءتي؟. ص 96.»

«كل قراءة هي قراءة مغرضة». هذا ما يقرّه عبد الفتاح كليطو في مفتتح تحليله لحكاية الصيّاد والعفريت: أي قارئ فهو مؤوّل بالضرورة يجد نفسه ملزما على تقديم تفسير للنص الذي يطالعه انطلاقا من انشغالاته الذاتية أومن انشغالات الثقافة التي ينتمي إليها، فقط عليه أن لا يكون بروكوست: يقطع أجزاء من النص أو يجذب إليه أجزاء أخرى حتى تنسجم مع التأويل الذي يفرضه على النص.

«الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي»

سنعتمد النسخة الصادرة عن المركز الثقافي العربي.2011 الدار البيضاء. تنتمي الرواية لما يعرف بـ «شعرية البوح بالمعاناة» أو بتأنيث الاعتراف، وتصنّف ضمن ما يصطلح عليه بالأدب ما بعد الكولونيالي أي الأدب الذي يقيم في تلك المنطقة البررخية أو الرمادية بين الاحتضار والمخاض: المراحل الأخيرة للاستعمار، والإرهاصات الجنينية للاستقلال.

وهكذا ستغطي الرواية غلافا زمنيا يترجح بين نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات مستثمرة حيّزا طباعيا يصل إلى 116صفحة. شيّدمعمارها على خمسة فصول مرقّمة بدون عنونة، ومزيّنة في غلافها الأول بصورة باب منزل قديم . في حين توجد بالغلاف الأخير خمسة آراء وأقوال نقدية حول الرواية (سنتجاوز بيوغرافيا وبيبلوغرافيا وحوار مع الكاتبة لأن النسخة المعتمدة تعفينا من ذلك).

بعض العتبات والنصوص الموازية

أسئلة وافتراضات مفتوحة:

العنوان: عام الفيل: نحن إزاء تناص يدفع إلى طرح السؤال الآتي: كيف انزاحت مكونات العنوان عن حمولتها الدينية إلى رمزيتها الروائية؟

عام الفيل هو السنة التي حاول فيها أبرهة ممتطيا فيله هدم الكعبة فأرسل الله إليه الطيرالأبابيل «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل...» سورة الفيل.

فهل كان زوج زهرة بطلة الرواية ينوي هدم نفسيتها مثل ما عزم أبرهة – في علاقته بالكعبة - هدم قدسيّتها؟.هل نتجاوز هذه الفرضيات ونقف عند ما أشارت إليه الساردة في نهاية الرواية

حين ألمحت بأن عام الفيل، هو لحظة رغد عابر وزائل؟ «الكرْب لم يبق منه سوى ذكريات باهتة، وعام الرفاهية لم يبق منه شيء، سمّيته كذلك قياسا على عام الفيل» ص116.

الصورة الأمامية: باب قديم مغلق. فهل في ذلك إيحاء بأننا أمام فضاء موصد لن نمتلك مفاتيحه إلا بعد قراءة الرواية لنعرف ما كان يدور بداخله؟ أم أنه باب في شكله وفي صناعته يحيل على ذاكرة في الماضي تحتاج النبش في التفاصيل والجزئيات؟ أم أننا أمام بنية محكمة الإغلاق تتطلّب هدم بابها أو مدخلها لتركيب باب أو مدخل جديد؟

الغلاف الخلفي: نحن أمام خمسة أقوال وآراء نقدية لنقاد من بلدان مختلفة. فهل معنى ذلك أننا سنكون أمام رواية ذات صيت وطني وقومي وأنجلوفوني، ولم لا أمام نص يتحرك في مجال دولي 5، (من المغرب عبد العالي بوطيب، بثينة شعبان من دمشق، مايكل هول من أستراليا، إليزابيت فرنيا من جامعة تكساس، وفدوى مالطي دوغلاص من جامعة إنديانا) تسمح القراءة العمودية لهذه الآراء بطرح مجموعة من الاستفهامات الأولية نصوغها على الشكل الآتي:

- ما الجديد الذي تحمله هذه الرواية خلافا للكتابة النسائية؟
- أي فهم ممكن لإسلام إيجابي كقوة لإحلال العدالة الاجتماعية والتحرّر؟
- هل جمعت الرواية – بالفعل - بين البساطة والمتعة؟ وما تجليات ذلك؟
- ما العلاقة التي ربطت بين الساردة(زهرة) والشيخ؟ وما دور الناس البسطاء الذين ينساهم التاريخ عادة ، في الكفاح الوطني وفي قلب الموازين في حرب غير متكافئة؟

وحدها الدراسة المتأنية للرواية هي التي تملك مشروعية إثبات هذه الآراء أو نفيها. وهي أراء في كليتها مرهونة بسياق تلقي الرواية ومبررة في محرابه، غير أن سؤال السياق البيداغوجي لإقراء المؤلّف يمنح الأولوية ولاشك لسؤالين مركزيين نصوغهما مؤقّتا في ما يأتي:

- ما انبثاق الذات وما تحولاتها؟ كيف تعاملت الذات الأنثى تحديدا مع نفسها حين تكون موضوعا للحكي وهي تحكي عن ذاتها، أو تنوب عن غيرها من ذوات جنسها، عن معاناتها(هن) وعن قلقها(هن) الوجودي؟
- ما مؤسسات السلطة وما بنياتها التي شكّلت عائقا أمام انطلاق الذات بحثا عن حريتها وتأكيد إنسانياتها بما تحيل عليه من قيم الاعتراف كإنسان أولا-له حقوق كونية- ، كمناضلة/ مقاومة ساهمت في معركة الكفاح الوطني ومن حقها أن تستثمر فعل المقاومة لتأكيد الذات والافتخار بالانتساب إلى جنس الأنثى كحقيقة لا كتمييز، كحق لا كصدقة؟

المتن الحكائي

زهرة فتاة من أصول قروية عاشت في بلدة عند جدها وجدتها بعض مرض أمها. تزوجت بمعلم للغة الفرنسية.ارتبطت وإياه بالعمل الوطني ومقاومة الاستعمار - بعد انتقالها إلى مدينة الدار البيضاء - وقد تحمّلت في سبيل ذلك كل المخاطر، مثل التنكّر والاختفاء، ونقل السلاح وتهريب الفدائيين وزيارة المعتقلين، وضمنهم زوجها لكنّ هذا الأخير تنكّر لكل هذا التاريخ.

بعد حصوله على منصب سام في مغرب الاستقلال، قرّر دونما سبب تطليقها باعتبارها سلعة متجاوزة الصلاحية.تقول:

«تصاعد فيّ الحنق فقلت بعنف:

لا آكل بالشوكة.لا أتكلّم الفرنسيّة.لا أجالس الرجال. يكفي أو أزيد؟

-هذه مثُلهم؟

- لست سوى سكّة قديمة تصلح للمتاحف. مناصبهمالآن تحتاج للعصريات» ص18

ستعود إلى بلدتها لتبيت ليلة عند شيخ الضريح، لتنتقل في اليوم الموالي إلى حجرة كانت مكتراة في منزل أبيها. ولأنها تعلّمت الكتابة والقراءة في الدروس الليلية لمحاربة الأمية، فإنها وقّعت على وثيقة طلاقها وردّت لزوجها نفقةُ ثلاثة أشهر وعشرة أيام التي حوّلتها لها المحكمة. وبإيعاز من الشيخ فإنّها اشتغلت في الغزْل الذي تعلّمته في طفولتها. لفترة وجيزة كانت كافية للاقتناع بأنه لن يسدّ رمقها. فتقرّرالعودة إلى البيضاء باحثة عن عمل قار، وبعد انتقالها من هذا المعمل إلى ذاك بدون جدوى – لأنها تتوفّر فقط على شهادة في محاربة الأمية - تم قبولها في الأخير منظّفة في مركز ثقافي فرنسي. وذات يوم وجدت في مكتب إحدى الموظفات مجلة يتضمّن غلافها صورة رجل كهل وفتاة صغيرة حسناء. ستعرف بأنه تزوّجها وطلّق زوجته الأولى بعد أن أصبح طبيبا مشهورا، ليهدم بذلك عشرين سنة من العشرة. ساعتها ستعرف بأن حالتها ليست مسألة محلية بقدر ما هي ظاهرة كونية. تقول: «كنت أحسب حالتي فريدة حتى رأيت صورة بالألوان لكهل وفتاة حسناء، زوجته الجديدة، أما القديمة التي عاش معها عشرين سنة فقد طلّقها بعدما أصبح مشهورا» ص 115-114

انبثاق الذات من خلال ثلاث مؤسسات:

1- مؤسسة الأسرة: إنها مرحلة التبرعم والرغبة في الحياة ببراءة الطفولة، وبحرية بدون ضفاف أوكوابح: «كنت أعدو وألعب وأفعل ما أشاء...كنت مفتونة بالحياة» ص26. هذه الرغبة استُثمرت لها صورٌ مجازية تحيل على الاخضرار والخصوبة :«الخضرة دائمة عندنا» ص27.

وسيرتفع منسوب هذه الرغبة بذلك الفضول الطفولي المُحرّض على الاكتشاف، حيث كانت الساردة «زهرة » مفتونة بشخصية «رحمة » تلك الجارة اللّغز، الساحرة والمخبرة وقارئة الفنجان لليهود في البلدة والمشكوك في ماضيها وفي أصلها حسب الجيران. تقول: «ركَّبَت هذه المرأة الغريبة لخيالي أجنحة.بهرتني ومارست عليّ سحرها.. وعزمت: أتسلّل إلى مملكتها وانتهك ألغازها» ص11. هذه الرغبة جاورتها رهبة بحكم أعراف العائلة الممتدّة التي تربّي الفتاة على ضوابط نمطية من قبيل:

- التربية على الامتثال والخوف من السلطة الأبوية.تقول في ص 25: «كثيرة الامتثال منذ كنت... يعقلني الخوف إذا تناهى إليّ صوته ولا أشعر بالأمان حتى يذهب أو أعود إلى بيت جدي» ؛

- التربية على الحذر من الزوج ومفاجئات المستقبل: «وجدت جدتي منذ وعيت تردّد: المرأة ليس لها سوى زوجها أو عقارها ،والأزواج لا يؤتمنون»ص 24. «منذ الطفولة يسلّحوننا للنكبات»ص28 ؛

- التربية على أننا مُسيّجين بالعين والسحروالحسد من طرف الأهل: «يقول جدي: تلبسين بالعافية...وتقول جدّتي تكيدين الحسّاد أو تعمين الأعداء.والمقصود عماتي وزوجات أعمامي..إن التكرار ألقى في روعي منذ سنين مبكّرة أن أمي المسكينة تعيش في جحر ثعابين»ص 26

2- مؤسسة الزواج: سلطة العرف، تقتضي أن كبير الأسرة أو العائلة، جَدّا كان أو أبا أو أخا هو الحاسم في مستقبل البنات.اقتراحاته قرارات ملزمة التنفيذ، وليست آراء قابلة للمناقشة: التعرف على الزوج، حرية الاختيار، معاييره أمور ليست من حق المرأة، ولا مجال للتفاوض حولها: «بنى اختياره على طول شعري وسود عيوني...وزوّجوني من دون أن يطلبوا رأيي» ص31. نفس السلطة تتمظهر بصيغ متعددة نذكر منها:

- الطلاق بقرار مزاجي: تقول الساردة : «جلس وقال.ستصلك ورقتك وما يخوّله القانون.ورقتي ؟ ماأهون المرأة إذ تُردّ كالسلعة، بورقة؟ ماأهونها؟ لم تدم اللحظة سوى ثوان ولكنها هدّت بنياني»ص8

«لماذا؟ ليس عندي سبب» ص8

«لا آكل بالشوكة. ولا أتكلم الفرنسية.لا أجالس الرجال.» ص 18.

- الحماة نموذجا للتسلّط: فبالرغم من زواج ابنها ، فإنه لازال ملكا لها ، وزوجته يجب أن تتحوّل إلى خادمة عندها. وإلا فإن قرار استمرارية العلاقة الزوجية أو قطعها متوقّف على إرادة الحماة. تقول الساردة:«لو سعف أمه لطلّقني من عامي الثاني..كان حكمها في حياتي كحكم الإقطاع. فيه كان عليّ أن أصحو وأحمد لها نعمة إنجابها ابنَها. ويوم قال: تقرّر أن أنتقل إلى الدار البيضاء صكّت وجهها ، وشقّت ثوبها ، واتهمته بالعقوق » ص32

- ربط العقم بالمرأة: فهي ليست إلا جسدا للمتعة أو رحما للإنجاب. «العقم سبب كاف في مجتمع لا يعبأ بالمسبّبات» وكل تأخر في ذلك يشرّع للشعودة والخرافة ويعطّل كل تفسير علمي يجرؤ العقل على رسم ممكناته. «لم يأت النّسل، فبدأ الطواف على الأضرحة وحرق البخور وتعليقالأحجبة وتجرّع الأعشاب. لو أعطوني السم لشربته. وحين يئسوا انحطّت معاملتهم» ص32.

- مؤسسة الوطن: مجال لمفارقة صارخة. حاضن لقيم التضحية والإيثار، وحافز على استرخاص الأرواح وتجشّم مشاق التعذيب والتنكيل. صورة مثلى تغري لما تختزنه من قيم المساواة والعدالة والتحرّر. غير أنّ فعل الممارسة قاد الساردة، زهرة إلى إحساس مفارق: وطنيّة في المظهر، وانتفاعية في الجوهر. جزء كبير ممن ناضلت بجانبهم - ومنهم زوجها - وكانت على مشارف التضحية بحياتها من أجلهم، قد غيّروا جلدهم وقيمهم وسلوكهم وعلاقاتهم الإنسانية. ومع إحساسها بهذا التحوّل من قمّة الحماس إلى حضيض الانتكاس، فقد تغيرت نبرة خطابها لتتخذ شكل إدانة صارخة – دون أن تتحوّل إلى نبرة ثورية - .تأكيدا لذلك نكتفي بالمثالين الآتيين:

تقول عن زوجها: «وجدني أجلس مع الخدم في الشمس.. لوكان بيده مسدّس لأطلق عليّ النار.. أكَلَ بالشوكة وأكلت بيدي... وقلت لا يعجبك أن آكل بيدي. وبماذا كنا نأكل في بوشنتوف؟ هل هذا هو الاستقلال؟ ولا يعجبك أن أجلس مع الخدم. باسمهم حاربنا الاستعمار.وأنتم الآن تتصرّفون مثله» ص89-90.

وتقول عن صفية التي تصرّفت في الودائع التي كانت تجمع للوطنيين (حلي،مجوهرات،أقمشة): «صفية عكّرت الصفو، ولوّثتالنضال، وأطفأت التفاؤل والثقة.إنّ صفية مدّت يدها إلى الودائع» ص 85-85

القوى الفاعلة

ثنائية الذات والسلطة / المعنى واللامعنى:

قوى فاعلة آدمية سلبية:

ترصدها الساردة بين ما كانت عليه وما آلت إليه عبر ثنائية تؤسّس لتضاد واضح: من الفاقة إلى الأناقة، من الموقع الوضيع إلى المنصب الرفيع، من لغة المبادئ إلى لغة المصالح. ومن نماذجها: الزوج،رقيّة وزوجها الفقيه، صفية وزوجها. تقول زهرة عن صفية: «بدّلها الاستقلال وشوّهها بين من بدّلوشوّه. قصّت شعرها وبدأت تخرج في الزي الأوربي.» ص113.

قوى فاعلة آدمية إيجابية:

ومن نماذجها:

- شيخ الضريح: يقدّم إسلاما بنفحة صوفيّة يدعو إلى الصفاء عوض الجفاء، القناعة عوض الجشع، السكينة عوض الجزع وإسلام المشاعر لا إسلام الشعائر فقط. دائم الحيوية يعيش على كسرة خبز وزيتون وماء زلال:«عندك سرّ تخفيه.لا تحاول أن تتملّص:- إنّه السلام،معا لنفس.لاغير»ص 114.

- الحاج علي: يجمع بين الصدق في العمل والوفاء للوطن. آمن بالوطنيّة قيمة مثلى تتجاوز الزمن وتتسامى عن المنصب، لهذا قدّم استقالته من منصب قائد بعد سنة من تعيينه ليعود إلى ورشة الحدادة. تقول عنه الساردة: «وطنيّ صنعته الحدادة. حبّه لعمله لا يعدله إلا حبّه لوطنهص 52. «أفكر فيه وأدرك بإعجاب متجدّد كل مرّة كأنني أكتشف الأمر لأول مرة أنه من الحداداة خدم وطنه وصنع أبناءه.» ص112.

يمكن الإشارة إلى أن بعض القوى الفاعلة الآدمية تقدّم بدون أسماء لأنها تمثّل، إما نماذج أو ظواهر، أو أنماط وعي وسلوك تتجاوز الحالات الخاصة وتكون قابلة للتعميم (الأب،الأم،شيخالضريح،المجنون ،العرافة التي زارتها الساردة بعد طلاقها..).

قوى فاعلة غير آدمية:

تحضر فيها الفضاءات المكانية بإيحاءاتها المرجعية.فالبلدة مرتع الصبا وموطن الفلاحة والخصوبة الدائمة، والبيضاء قلب التجارة والصناعة وشرارة الوطنيّة بأحيائها (كريان سانطرال) ومركز تعذيبها(كوميسارية المعارف). والرباط فضاء الاستعدادات لاستقبال الملك محمد الخامس، والاحتفال بالاستقلال.كما يمكن رصد بعض الفضاءات الجانبيّة التي تم استدعاؤها لدلالتها التاريخية (الهند الصينية)، المنطقة الشمالية، أو لدلالتها على معاناة الوطنيين باعتبار وظيفتها(سجن العدر- سجن فلاحي-...).

زمن الخطاب والرؤية السردية

قدّم هذا العالم السردي وفق بناء غير حلقي يخضع فيه تطور الأحداث لزمن متعدّد الأبعاد،رزمن لا يخضع لخطية كرونولوجية، زمن يتداخل فيه الماضي بالحاضر، إما للدلالة على اشتباك الزمنين في ذاكرة الساردة، أو لتسهيل عملية رصد التحولات التي طرأت زمانا ومكانا وإنسانا بين نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات.وقد كان لتقنية الاسترجاع حضور لافت في هذه الخلخلة الزمنية. إذ بدأت الرواية بالعودة إلى البلدة بعد الطلاق في عمر40 سنة لننتقل بعد ذلك إلى معرفة طفولة وزواج ونضالية الساردة:
الحاضر (العودة إلى البلدة) / الماضي (الزواج - النضال - الطلاق) / الحاضر(العمل)

اللغة داخل الرواية

- استخدام اللغة التقريرية المباشرة لنقل الأحداث الوطنية والسياسية والوقائع النضالية، وهي لغة تقترب من التسجيلية والوثائقية ؛

- لغة شاعرية: عندما يتعلق الأمر بالوصف النفسي (مونولوجاتالساردة) أو الوصف المكاني «لكي نصل إلى بستان جدي نمشي في مسلك طويل عابق بالأريج....أعرف الأشجار» ص28-27.

- لغة تجمع بين السرد والتعليق: «شيخٌ، منهلُ خير، في زمان الوعّاظ فيه فجّار» وفي إشارتها إلى ثنائية انجذابنا نحو التمدّن، وانشدادنا إلى البداوة. تقول:«نحن قوم يجمع بين البداوة والحضر، كالأخذ بين طرفين، ذوقنا المديني عَكَسناه على النقش والزليج والرخام في الدور والمساجد والحمامات وبداوتنا في حبّنا للأرض.» ص23.

- لغة تميل نحوالباروديا(السخرية).تقول عن استقبال التقنية في مجتمع غير مهيء لها ثقافيا:«اقتنى أبي شاحنة صغيرة ليحمل عليها الزرع والزيتون...قال جدي: آلة من اختراع الجن. فردّ عليه أبي لو أنها تأكل التبن.» ص 33. وفي مكان آخر لتشير إلى التغيّر الذي طال المجتمع والتغيير الذي طرأ على المقاومين، ومنهم زوجها: «ما أسهل إسداء النصح...لقد بدأوا يلبسون الفرو والحرارة فوق الثلاثين، ويدخنون سيجارهافانا ويأكلون بالشوكة.» ص 89 . وعن نموذج المرأة العصرية،قالت: «لقد بدأ عصر السكرتيرات» ص91
- لغة ذات وظيفة بلاغية أساسا حيث يخرج الاستفهام عن مقتضاه ليفيد التعجب تعبيرا عن موقف رافض(أمثلة كثيرة): هل هذا هو الاستقلال (90) ؟ ما أهون المرأة (8)،ما أشدّ غموض الناس؟ وأشدّ تلوّنهمّ (85)

المعجم

يمكن الحديث عن ثلاثة حقول معجمية:

- معجم نفسي: يرتبط بالتحولات الذهنية والوجدانية التي عرفتها الساردة بعد طلاقها، مطعّم أحيانا بلغة تراثية: «رجعت مهيضة الجناح»، ص 7. «أهلي أجداث في مقابر المدينة» ص 8. «اليأس، الكرْب، المرارة ، غريبة، هدّت بنياني، الرهبة، الخوف من المجهول، همّ، زاد على ما بي شعورا حادّا بالتشاؤم» ص 100
- معجم سياسي: له علاقة بالعمل النضالي والحس الوطني ؛(النضال ، تنظيم، تجمعات،الحشود، المنفى الاجتماع، التبرعات،انخراط، المعتقل، المبادئ، الاستقلال، التاريخ، عميل، الجماهير، المقاومة، إبعاد.
- معجم ديني: حاضر بقوة في خطاب الشيخ ويعزّز بآيات قرآنية أحيانا لطمأنة الساردة وترميم نفسيتها المنهارة بعد طلاقها: «ولا يفلح الساحر حيث أتى»، «وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً أتصْبرون» ص19- «لا كرب يدوم» ص20. «الصلاة على النبي تفرّج الكرب وتنقي النفس من الدنس» ص 19. الدنيا إلى زوال، السلام مع النفس.«من المؤمنين رجال صدَقوا ما عهَدوا الله عليه فمنهم من قضى نحْبَه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلا» ص 8

رهان الرواية

لا سرد بدون رهان، ورغم هيمنة ضمير المتكلم وحضور سارد كلي – هيمنة الرؤية من خلف- فقد كشفت رواية عام الفيل عن انبثاق الذات دون إفراط نسائي عبر تعرية فترة تاريخية مهمة من تاريخ المغرب، تقتضي:

- إعادة النظر في ذلك التصور المثالي الذي رافق معركة التحرير الوطني وفي الصورة النموذجية بل الساحرة أحيانا في مخيالنا الجماعي حول الوطنيّين. إذ تقتضي الموضوعية عدم ركوب لغة التعميم والتنزيه المطلق. فمن الوطنيين من تمسّك بالمبادئ -الحاج علي، زهرة - ومنهم من تسلّق المناصب واستهواه الكرسي الوثير(الزوج، صفية، الفقيه..) حتى وإن كان على حساب من كان وقود الوصول. تقول الساردة : «أريد عملا يضمن لي لقمة عيش فقط، فلا أريد منصبا في سلك الدولة.» ص 110

- إعادة كتابة التاريخ الوطني بشكل يبرز دور المرأة - وإن في بساطته - في صناعته بدل ربطه بالرجل فقط في انتصار واضح لنزعة ذكورية لا تخفي مقصديتها ؛

- اعتبار المرأة إنسانا أولا والنظر إلى القانون كأداة لحفظ الحق وصيانته لا كأداة لتكريس الامتثال والخضوع ؛

- اعتبار التعليم مدخلا أساس للإحساس بالكرامة بل ضرورة لتواصل إنسانيّ يصون الحقوق ويسمح بالترقي الاجتماعي أو يضمن على الأقل لقمة العيش ؛
- إعادة النظر في مؤسسات السلطة، سواء تلك التي تتولى التنشئة الاجتماعية: الأسرة وعلى رأسها الأب، الزوج، الحماة ، أو تلك التي تتكفل بتقليدانيتها على توجيه الرأي وصناعة القيم المشتركة: الأعراف، العادات، التقاليد، الخرافة...

رغم أن رواية عام الفيل تستقي مادتها وأحداثها من المغرب ومن تاريخه ومعيشه، إلا أنها لامست بنعومة واضحة - قد تفسّربأنها تصالحية لا انتقادية، تسجيليّة لا تساؤلية - ذلك الشرود الحضاري الذي أطلنا الإقامة فيه بسبب ارتباكنا وترددنا بين تنائيا تضدية، من عناوينها البارزة: جاذبية الحداثة وثقل التقليد،المرأة الإنسان والمرأة الجسد/السلعة، الأمانة والخيانة، المبدئية والانتهازية...

ختاما تسمح قراءة رواية عام الفيل برسم خطاطة إجمالية تبرز انبثاق الذات عند زهرة كما يأتي:

المواجهة ضد

السلطة الأبوية	العقلية الذكورية	العقلية الخرافية
مؤسسة الأسرة	مؤسسة الزواج	المجتمع

ومن المهم أن نشير إلى أن ليلى أبو زيد قد سارت في روايتها الأخيرة «الفصل الأخير» في نفس الخط الذي سارت عليه في «عام الفيل» من خلال التركيز على تيمة إثبات الذات من طرف شخصيات نسائية ترفض كل أشكال الإقصاء والتهميش. فهل معنى ذلك أن زهرة ومثيلاتها لا زلن يعشن نفس الظروف، ويواجهن نفس المصير ؟ تقول الكاتبة وهي تجيب عن سؤال في نفس الاتجاه: هل يمكن أن تجد امرأة مغربية اليوم نفسها في ظروف شبيهة بظروف زهرة: «المرأة هي أكثر من استفاد من التغيير حيث تحول دورها الاجتماعي 360درجة....ولكن رغم هذا التغيير..مازال هناك كثيرات ممن هن في وضع زهرة ويمكن أن يجدن أنفسهن في نفس ظروفها,أقصد بذلك النساء الشبه أميات اللاتي يصعب عليهن إيجاد عمل لائق» ص119.

سؤال أخير ماذا عن أمثال زهرة في العالم العربي؟

المراجع

«عام الفيل»، رواية المفارقات المغربية، سلسلة ندوات، عدد 9 «المرأة والكتابة» جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.عبد العالي بوطيب

«رحلة الرواية المغربية من التأصيل إلى التجريب». شعيب حليفي/ عبد العلي بوطيب

«روايات ما بعد الاستعمار بالمغرب»: يحيى بن الوليد 13غشت 2017 / العربي الجديد

«عام الفيل- قراءة بنظرية ما بعد الاستعمار» وهي متضمنة في الكتاب الجماعي: «الكتابة النسائية : التخييل والتلقي» مايكل هول من جامعة مايكل هول من جامعة ملبورن في أستراليا، 2006

«تأنيث الاعتراف: سرد الأنا في الكتابة الذاتية النسائية العربية»: محمود عبد الغني، جامعة محمد الخامس/ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. سلسلة الكتاب الجامعي رقم7، ط2014-1

«زمن الخيبة والحلم، جمالية السرد النسائي».شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء. حوار مع ليلى أبوزيد: عام الفيل، نشرالمركز الثقافي العربي.